# «تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب» بعيداً عن الكره

▶ حتى قبل أن تصبح الشعوب الأخرى خارج القارة، ضحية لها. وبالتالي، يصعب التوفيق بين هذه الأعمال العنفية وتلك الفظائع، وبين الصيغ النمطية والمبتذلة التي تصوّر أوروبا أو الغرب كأنّه المكان المميّز لانبثاق عهد العقلانية والإنسانوية الكونية.

وفي ضوء ما تقدم، تبرز الحاجة إلى إعادة قراءة واستكشاف تاريخ أوروبا بغية إيضاح هذه المفارقة وإدراك مسبّبات التفجيرات العنفية التي أثارها الأوروبيون، كما تلك التي ولّدت هذه القوة في ابتداع الإنجازات العلمية، والفنية، والتقنية المتطورة، وفي التسريع من وتيرتها في هذه القارة ذات المساحة المحدودة للغاية. وبالتالي، ثمّة تلازم بين وجهتين في تاريخ أوروبا، واحد كالح وآخر ساطع، تسعى هذه الدراسة إلى تبيان محركاته المعقدة. ومما لا شك فيه، أنّ هذا التاريخ يقدم لنا منذ الحروب الصليبية أغنى المواقع لمشاهدة التأثير العميق الذي تولّده الأفكار والبيئات الثقافية في كل من الحياة السياسية والعادات والسلوكيات داخل كل مجتمع، لكن أيضاً بين المجتمعات. فالأفكار، في واقع الحال، مصمَّمة للسفر، أي لكي ترتحِل عن منبتها، وتتأقلم وتتوطن في بيئات بعيدة ومختلفة، في المكان كما في الزمان. ومن شأن كلّ رحلة تشرع بها الأفكار أن تحوّلها إمّا إلى الأفضل، أو إلى الأسوأ، على صعيد النتائج والعواقب التي تجرّها على حياة المجتمعات. وثمّة صعوبة أكبر في إيقاف انتقال الأفكار مقارنةً بتداول السلع والبضائع. فالرسم الجمركي على الأفكار هو السجن، وحظر استيراد الأفكار هو الرقابة أو الحكم بالأشغال الشاقة. في الماضي كان الجزاء الإعدام حرقاً. وكما سنرى على امتداد هذه التأملات والخواطر، فإنّ الشعار السياسي الحديث ما هو إلا نتيجة لفكرة فلسفية، ومناخ ثقافي، وفضاء ذهني، ونظام إدراكي معتمد في النظر إلى العالم. أما الفكرة الفلسفية المعاصرة، فما هي إلا إعادة رسم للعالم، وهي وإنْ حلّت محل تلك التي ورثناها من الدين، إلا أنها تبقى، على نطاق واسع، مشبعة بوافر من البُنى القديمة.

إنّها إذاً رحلة عابرة لتاريخ أوروبا وللأفكار الأوروبية، في الزمان كما في المكان، تلك التي نشرع بها ها هنا. رحلة في الزمان، لأنّ الأفكار الأوروبية لم تنفك عن اختراع وإعادة اختراع المواريث الثقافية الزائلة التي أسقطت عليها الثقافات الأوروبية المختلفة نفسها في المستقبل: الإرث الإغريقي، والإرث الروماني، وإرث مسيحية القرون الوسطى، وإرث العهد القديم، وإرث القبائل الجرمانية، والإرث الموصوف بإرث الإصلاح البروتستانتي. فمن عصر النهضة إلى الرومانسية، ثم إلى حقبة ما بعد الحداثة، مروراً بفلسفة عصر التنوير، والصوفية الألمانية وتلك السلافية، كانت الثقافات الأوروبية على الدوام تبحث عن قارة مفقودة (Atlantide)، علّها تبتدع المستقبل على نحو أفضل.

وهي أيضاً رحلة عابرة للمكان، لأنّ هذه الأفكار وتلك البيئات الثقافية المتنوعة قد صُدّرت في ركاب الغزوات والفتوحات أو، في أيّة حال، قد استُجْلِبَتْ إلى كلّ مكان من العالم تقريباً. وهي سرعان ما أوجدت أهل الفكر والثقافة أو نخباً جديدة، كان لهذه الأفكار الآتية من الخارج أن أنتجت لديها الآثار والمفاعيل الأكثر تناقضاً، وفي بعض الأحيان الأكثر عنفاً. وفي كلّ مكان من العالم تقريباً، من ألمانيا إلى روسيا ثم الشرق الأوسط والشرق الأقصى، كان لهذه الأفكار أن أيقظت الحماسة والرفض في آن واحد، وأن أثارت الافتتان والتفاني كما الاشمئزاز والبغضاء. وكما سنرى في اللاحق من فصول هذا الكتاب، عندما تنظر ثقافات ومجتمعات أخرى بعضها إلى بعض وينتقد بعضها بعضاً، أو ترى نفسها ضحية للغرب، فإنّها تفعل ذلك في أكثر الأحيان في ضوء الواحدة أو الأخرى من الأفكار الرئيسة القوية والدافعة التي أنتجتها الثقافات الأوروبية الكبرى: الأصالة، والتجذر، والوفاء للتراث، وصون القيم، والتفوّق في الإدراك الميتافيزيقي للعالم كما لتاريخه، والرسالة الروحية التي ينبغي إهداؤها إلى العالم. من هنا، تصبح الوظائف التخيُّليّة والأسطورية التي يحتاج إليها كلّ مجتمع، وظائف مدوِّلة على نحو خطير، عاكسة لصدام الأفكار التي كان لها في ما مضى أن هزّت الثقافات الأوروبية المختلفة بعنف بالغ، لدرجة أسهمت معها في تفجير الحربين العالميتين اللتين ضجّ بهما القرن العشرون. لهذا السبب، ترانا قادرين الآن، عند مشاهدة التشنجات الهويّتيّة المرتكزة على أساس أسطوري وغيبي، التي تثير الاضطراب في عالم اليوم، على استحضار المناخات الثقافية الأوروبية تلك، التي كانت قائمة في الماضي.

إنّ عالم الفترة الذهبية في أوروبا، أي عند نهاية الحرب العالمية الأولى، يبدو اليوم كأنّه ينبثق ثانيةً، زاخراً بالحدّة الجيّاشة نفسها للإقبال على الحياة، والسفر، والإثراء، والاستهلاك، والبناء بطريقة فيها من الفحش والشواذ ما يثير الاستغراب. في وقت لا تزال فيه نار المبادئ السياسية الميتافيزيقية تكمن تحت الرماد، كما يشهد على ذلك التهجّم الكلامي المتواصل من الدوائر الإعلامية والسياسية الغربية بحق كل من الصين وإيران، وسوريا وروسيا والإسلام؛ وهو ما يؤكده الدعم الأعمى الذي تغدق به الحكومات الغربية تأييداً للاحتلالات الإسرائيلية واتّساع المستوطنات وتمدّدها، وعلى غزو العراق وأفغانستان، وكلّ ذلك في غياب أيّة مراعاة لقواعد القانون الدولي.

وفي الجهة المقابلة للحدّ الغربي للفكر، لا تنقصنا اللعنات التي تدين الحرب الصليبية الجديدة، وهي هذه المرة توصف بالـ«يهومسيحيّة»، وتشجب العودة إلى إمبريالية توسعية لا تطاق، والعودة إلى مسرحية الديموقراطية تزيّن نفسها على نحو خبيث، بكساء الإنسانوية وغطاء حقوق الإنسان. أليست هذه كلّها إشارات تنذر باستعار حريق جديد؟

أما ما يثير القلق أكثر، فهو يكمن في إعادة استعمال مفردات المعاجم الأوروبية القديمة وما تحتوي عليه من الملتبس والمبهم من الألفاظ والمصطلحات، التي تجتاح عالم البحث الأكاديمي، وهو عالم غالباً ما يُخضِع نفسه في الواقع لهذه الأساطير الكبرى، ولا سيما عندما تُعنى المباحث بالجغرافيا والأنثروبولوجيا. وفي الغالب من الأحيان أيضاً، يزوّد البحث الأكاديمي وسائل الإعلام بالمادة التي تغذي المخاوف الوجودية، وقلق الغيريّات الجذرية في طريق المواجهة والصدام الكامل الشامل.

ذلك أنّ انتشار العولمة على وقع الأفكار والتصرفات الأوروبية، يزداد على نحو متواصل خطراً وعنفاً كما يشهد له تاريخ القرن المنصرم، والغزوات التي تعرضت لها دول ذات سيادة في مستهل القرن الجديد (ونعني بها كلاً من العراق وأفغانستان). ومن الملحّ أيضاً أن نسعى إلى استبيان مواضع الصدوع الزلزالية التي تهدد الكرة الأرضية بهزات جديدة، في ظل هذا الصدام الذي نشهده للأفكار والحساسيات الثقافية، كما لما تستتبعه من رؤى عن العالم. ولا بد كذلك من أن ندرك كيف أمكن نُظماً فلسفية عالية الأهمية وفائقة الرواج، وأفكاراً تنضح نُبلاً وإنسانوية وتدعو الإنسان إلى تشجيعها والارتقاء بنفسه إلى روحية أعلى، أن تنتج كل هذا الكم من الأعمال العنفية التي تولّدت من رحم أوروبا عينها، بالغةً في الماضي حدّها الأقصى، والتي لا تزال اليوم تهددنا، نتيجة الانتشار الدولي المتزايد الكثافة لهذه الأفكار.

### الانتشارات العسكرية الجديدة والملتبسة لأوروبا في العالم

إنّ الاحتدام الأخير للأعمال العنفية الداخلية الأوروبية خلال الحرب العالمية الثانية، هو الذي حضّ الأوروبيين على التخلي عن الأهواء القومية والأيديولوجية، لينكبّوا على توحيد قارتهم، متوسّلين التبادل الحر، وتحقيق سوق موحّدة وإرساء عملة مشتركة، بالإضافة إلى تعميم كلّ من الحرية الفردية ودولة القانون. فهل لهذا الأنموذج الجديد أن يحقق للأوروبيين الهناء والرفاه، وهل له أن ينشر ضياءه على القارات الأخرى؟ وهل هو يندرج في استمرارية تاريخ القارة أم في القطيعة عنه؟ أثمّة استمرارية في المطامح الإنسانوية والكونية؟ أثمّة قطيعة في الاستخدام المتطرّف والمفرط للعنف الذي غالباً ما ميّز تاريخ الأوروبيين، أكان ذلك في علاقاتهم المتبادلة أم في علاقاتهم مع شعوب القارات الأخرى؟

لكن، إنْ صحّ ذلك، فكيف السبيل إلى تفسير انتشار الألوية العسكرية الأوروبية وتسويغه، وقد تظلّلت ببيارق متنوّعة (من علم منظمة الأمم المتحدة، إلى علم منظمة حلف دول شمالي الأطلسي، وعلم قوات خاصة كما في العراق)، لمواجهة حالات متأزّمة في كل من البلدان، والشرق الأوسط، وأفريقيا، أو أي مكان آخر؟ وكيف السبيل إلى تفسير ما يقدمونه من دعم للانتشار العسكري الأميركي في كلّ من العراق وأفغانستان؟ أفي هذا النهج إسهام في تحقيق السلام العالمي، أم هو المقدمة المنطقية التي تنذر بغزو جديد يُخضَع العالم له، وتُجرّ إليه الدول الأوروبية تحت راية الدفاع عن القيم المسمّاة غربية، وذلك في سياق توسّع القوة العسكرية الأميركية في العالم وانتشارها؟ وإنْ صحّ ذلك، فما الذي يفعله إذاً في عام 2009 جنود من الجنسيات الأوروبية المختلفة، في جبال أفغانستان الوعرة، حيث سبق للجيش الإمبراطوري التوسّعي البريطاني أن حصد في القرن التاسع عشر هزيمة نكراء، وحيث كان للجيش السوفياتي أن أخفق إخفاقاً ذريعاً في أواخر ثمانينيات القرن العشرين؟ وما الذي يفعله الرتباء الدنماركيون والبولنديون والإيطاليون، إنْ اكتفينا بهم فلا تطول اللائحة، في صحارى بلاد الرافدين وبواديها

> أيعقل ألا تكون أوروبا اليوم، وهي التي أنجبت الولايات المتحدة، إلا لاحقاً لهذه القوة العظمى

ومستنقعاتها، بعد مضيّ نصف قرن على إزالة الاستعمار؟ أيكونون حقاً جنود السلام، الضامنين لإقامة «نظام ديموقراطي» في العالم، أم هم لا يفعلون سوى العَوْد على بدء، فيستأنفون تقاليد غزو العالم والسيطرة عليه، سائرين في أعقاب توسّع قوة الولايات المتحدة العظمى وتمدّدها، الحاملة لمشعل الغرب؟

كثيرة هي الأسئلة الصعبة المطروحة هنا، التي ستحاول الملاحظات اللاحقة في هذا المؤلَّف جاهدةً توضيحها وتفسيرها، في ظل استحالة الوصول إلى إجابات قطعية لا لبس فيها. ولعلّ في نظرة مَن لم يكن أوروبيّ الأصل، لكنّه أحسن الاطلاع على الثقافة الأوروبية فألِفَها، وقد كانت مكتسبة لديه فلم يُفْطِر عليها، ما لا يحمل فائدة للأوروبيين فقط، لكن أيضاً لكلّ الذين هم خارج أوروبا ولا يعتقدون أنّ الفكر السياسي الأوروبي قد استنفد كل خصوبته وطاقته الإبداعية بالنسبة إلى الأشكال الأخرى من الفكر السياسي. ولا بد لي من أن أضيف أيضاً أنّ اللغة الفرنسية، التي كتبتُ بها هذا المؤلَّف قد اشتهرت لاتّصافها بالوضوح والدقة. فهي خلفت اللاتينية، وقامت مقام لغة الحضارة الأساسية في أوروبا خلال القرنين السابع والثامن عشر. ولا ننسى أنّ كلاً من الذوق الفرنسي، والأدب الفرنسي، والموضة الفرنسية، تمتع بمنزلةٍ رفيعة أصبحت معياريّة، بالنسبة إلى الثقافات الأوروبية الأخرى، كما بالنسبة إلى ثقافات أخرى توسّط انتماؤها بين أوروبا وآسيا. وتلك كانت الحال بنحو خاص في وضع كلّ من الثقافة الروسية، والثقافة التركية العثمانية والثقافة العربية، التي تضررت وأفادت في آن واحد، من المبادرات والمشاريع الأوروبية، وما حملته معها من مآس وشدائد وتقدم ونمو في آن معاً، حيثما قادتها حيويتها الغازية. وبالطريقة عينها، كان لتأثيرها أن انعكس، حتى في الهند والشرق الأقصى، تحوّلاً عميقاً في المجتمعات التي مسّها، سواء اتّخذ له شكلاً ليبرالياً أو محافظاً متمسكاً بتقليد السلف، أو جذرياً، أو ثورياً ماركسياً، بل أيضاً مثّل القيم الجمهورية على الطريقة الفرنسية.

أليس كلّ من الفرنكوفونية والكومنولث البريطاني القائمين اليوم، طيفاً شاحباً ومتأخراً عن تلك المنزلة القديمة التي احتلّتها لغة فرنسا ولغة إنكلترا وعادات كلّ منهما المسلكية، علماً بأنّ هاتين القوتين العظميين قد تنافستا على الإمساك بزمام أمور العالم وقيادته طوال القرن التاسع عشر؟ أليست الولايات المتحدة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، القوة العسكرية، والعلمية والثقافية العظمى التي تقود العالم، تاركةً أوروبا على هامش التاريخ الذي مرّ؟ أيُعْقَل ألا تكون أوروبا اليوم، وهي التي أنجبت الولايات المتحدة، إلا لاحقاً لهذه القوة العظمى التي أضحت إمبريالية توسعية لدرجة تذكّر بما كان من حال الإمبراطورية الرومانية؟ ولا ننسى أنّ شبح انحطاط تلك الإمبراطورية وانحلالها، التي استوحت منه أوروبا في عصر النهضة، قد لازم الفكر الأوروبي كما الهَجَس، تماماً كما يلاحق اليوم الفكر السياسي الاستراتيجي الأميركي. وماذا عن مركب أوروبا، الذي هو اليوم أكثر ثباتاً في تعلّقه بالجمهورية الأميركية التوسعية مما كان عليه خلال القرن العشرين؟ أيّ مصير يمكن أن يكون بانتظار أوروبا، وبخاصة أنّها تقبع في ظلّ قوس عواصف الشرق الأوسط العاتية، الذي يطوّقها ويتربّص بها؟

كانت للقوى الأوروبية العظمى مسؤولية تاريخية مهمة في العديد من النزاعات التي تمزّق هذه المنطقة المضطربة من العالم. فهل ستقوى أوروبا على التخلّص اللبق من اللعبة فتنسحب منها، في ظل هذا الجو المثقّل بالتهديد بين غرب أسطوري ميثولوجي، يقال فيه إنّه «يهومسيحي»، وبين شرق، لا يقلّ عنه تخيُّليّة، يقال فيه إنّه «عربي ـ إسلامي»، وهو جوّ بات اليوم يوصَف كما لو أنّه يجسّد تماماً صحة مقولة «صراع الحضارات»؟ ولقد كان لجيوش منظمة حلف شمالي الأطلسي أن انتشرت في العالم، في ظل راية هذا الصراع بالتحديد، منذ بداية هذا القرن، واحتلت دولتين سيدتين، هما أفغانستان والعراق. فما الذي تفعله أوروبا في مثل هذا المشروع، الذي لا بد أن يذكّرنا بما أتت به في الماضي، يوم كانت تقود عملياتها الاستعمارية، مسوّغة سلوكها ذاك برغبتها في بسط النظام والحضارة؟

### أزمة الثقافة في القرن الحادي والعشرين والأشكال الجديدة للإرهاب

إنّ هذا المؤلَّف موجّه إلى القارئ التائه القلق، أكان غربيّ الأصول أم شرقيّها. ولم أكتب هذه الصفحات دون خشية أن أرتكب في بعض الأحيان اختصارات كيفيّة قد تتعرض للانتقاد من الباحثين المتبحّرين، أو على العكس، أن أنتهي إلى الغموض لشدّة رغبتي في الربط بين الأحداث والأفكار والحقب والمراحل التاريخية والظواهر الاقتصادية والاجتماعية، التي غالباً ما أُهمِلَتْ أو أُزيلت من الذاكرة لمصلحة غيرها من الأحداث والفصول والظواهر الاقتصادية والاجتماعية. ففي عصر يبرز فيه التخصّص المتنامي في مختلف العلوم والحقول، بالإضافة إلى تجزئة المعارف، يبقى مثل هذا العمل الذي قمتُ به محفوفاً بالمخاطر.

غير أنّني آمل أن يستطيع بحثي هذا الإسهام في إدخال بعض الترتيب إلى تصادم المفردات والمصطلحات المصطخبة، التي تهزّ العالم المُعَولَم الذي نعيش فيه. فالأنواع المختلفة والمتناقضة من الإرهاب الفكري تثير الاضطراب في كوكبنا، وتسمح بازدهار الأشكال المتنوّعة من إرهاب الدولة والإرهاب الذي تضطلع به جماعات عنيفة عبثيّة الطابع، تدّعي تطهير البشرية بشتى الأساليب، انتظاراً لنهاية البشرية بنهاية الألفوية (millenariste)، لا بد أن تذكّرنا بما أمكن له الحدوث في أوروبا، في

الدكتور جورج قرم (أرشيف ـ بلال جاويش)